

سورة الإسراء

﴿الآيات: 105 - 108﴾

الدرس

27

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف منزلة القرآن الكريم وصفة إنزاله.
- 2- أن أميز بين المشركين والصالحين من أهل الكتاب في تأثيرهم بالقرآن الكريم.
- 3- أن أقنّدي بالصالحين من أهل الكتاب في تأثيرهم بالقرآن الكريم.

تمهيد

لما بين الله سبحانه في قوله: ﴿فَلْيَسِرْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنشِرَ وَالْجِرْ﴾ [الإسراء: 88] أن القرآن معجز صادق فيما يخبر به؛ نوه سبحانه بالقرآن الكريم وبين صفة نزوله، وذكر أن أهل الكتاب الذين يعظمهم المشركون آمنوا به وخشعوا عند سماعه.

فما المقصد من تنويه الله تعالى بالقرآن الكريم؟ وكيف يؤثر في خشوع القلب وتقويم السلوك؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥ وَفَرَأَانَا جَهَنَّمَ لِنُغْرِلَ عَلَيَّ النَّاسِ عَلَيَّ مَكِّيٍّ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا ۝١٠٦ فَلَا أَمْنٌ لَهُمْ أُولَئِكَ تَوَلَّوْا إِلَى الْخَيْبِ اتُّوُوا لَعَلَّكُمْ مِّنْ قَبْلِهِ ۝١٠٧ إِنَّا إِنْبِلُكُمْ عَلَيْهِمْ بَخْرُوءٍ إِلَّا فَرَجْعًا وَإِقُولُ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَخَشَعُوا لِقَائِ رَبِّكَ وَزَيْدُكُمْ خُشُوعًا ۝١٠٩﴾ [سورة الإسراء: 105 - 108]

الفهم

الشرح :

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ	: بالحكمة الإلهية وبالواجب الذي هو المصلحة والسداد.
وَبِالْحَقِّ نَزَلَ	: نزل القرآن بالحق في أوامره ونواهيه وأخباره.
وَفَرَّأْنَا بَاقِرَاتِنَا	: أن نزلناه مفرقا منجما غير مجتمع.
عَلَىٰ مَكْنٍ	: على مهل وتؤدة ليفهمه المستمع إليه.
وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا	: شيئا بعد شيء على حسب المصالح.
أَوْتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ ۖ	: مؤمنو أهل الكتاب من اليهود والنصارى.
يَخْشَوْنَ	: الخرور: سقوط الجسم.

استخلاص مضامين الآيات:

1- بم نوه الله سبحانه في هذه الآيات؟

2- بماذا رد الله سبحانه على من أنكر القرآن الكريم؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولا: تنويه الله سبحانه بالقرآن الكريم وبيان صفة إنزاله.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾، الضمير في قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ عائد على القرآن المذكور في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن مِّثْلٍ﴾ [الإسراء: 89]، ويجوز أن يكون الكلام مستأنفا. وأشار بالضمير إلى القرآن على غير ذكر متقدم لشهرته.

والمقصود بقوله: ﴿وَيَا نَحْوَ أَنْزَلْنَا﴾ بالواجب الذي هو المصلحة والسداد للناس بالحق في نفسه. وقوله: ﴿وَيَا الْحَقِّ نَزَلَ﴾ يريد بالحق في أوامره ونواهيه وأخباره، فبهذا التأويل يكون تكرار اللفظ لمعنى غير الأول. وذهب الطبري إلى أنهما بمعنى واحد، أي: بأخباره وأوامره وبذلك نزل. وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: وما أرسلناك أيها الرسول الكريم إلا مبشرا لمن أطاعنا بالثواب، ومنذرا لمن عصانا بالعقاب.

ثم بين تعالى الحكم التي أنزل القرآن من أجلها مفصلاً ومنجماً حسب الوقائع والأحداث، فقال سبحانه: ﴿وَفُزَّانًا بَقَرْتَنَاهُ لَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكَيٍّ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾. مذهب سيبويه أن نصب ﴿وَفُزَّانًا﴾ بفعل مضمر يفسره الظاهر بعد، أي: وفرقنا قرآنا. ويصح أن يكون معطوفاً على الكاف في ﴿أَرْسَلْنَا﴾ من حيث كان إرسال هذا وإنزال هذا لمعنى واحد. وقرأ الجمهور ﴿بَقَرْتَنَاهُ﴾ بتخفيف الراء، ومعناه: بيناه وأوضحناه وجعلناه فرقانا. وقرأ "فرقناه" بتشديد الراء. إلا أن في قراءة ابن مسعود وأبي "فرقناه عليك لتقرأه" أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء لا جملة واحدة. ويتناسق هذا المعنى مع قوله: ﴿لَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكَيٍّ﴾، وهذا كان مما أراد الله من نزوله بأسباب تقع في الأرض من أقوال وأفعال في أزمان محدودة معينة.

واختلف أهل العلم في مدة نزول القرآن، فقليل: في خمس وعشرين سنة. وقال ابن عباس: في ثلاث وعشرين سنة. وقال قتادة: في عشرين سنة. وهذا بحسب الخلاف في سن رسول الله ﷺ، وذلك أن الوحي بدأ وهو ابن أربعين، وتم بموته. وحكى الطبري عن الحسن البصري أنه قال: نزل القرآن في ثمان عشرة سنة.

وتأولت فرقة قوله عز وجل: ﴿عَلَى مُكَيٍّ﴾ أي: على ترسل في التلاوة وهو الترتيل، وهذا قول مجاهد وابن عباس وابن جريج وابن زيد. والتأويل الآخر: على مكث وتطول في المدة شيئاً بعد شيء. وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ مبالغة وتأکید بالمصدر للمعنى المتقدم ذكره.

ثانياً: تفاوت الناس في تأثرهم بالقرآن الكريم؛

بعد تنويه الله سبحانه بالقرآن الكريم وبيان صفة نزوله، وضح تفاوت الناس في تصديقهم

بالقرآن الكريم وتأثرهم به، إذ عاند المشركون وكفروا به، وصدق به الصالحون من أهل الكتاب وتأثروا به. قال سبحانه: ﴿فَلْإِمْنُؤَايِهِ أَأُولَٰئِكَ تُوْمِنُوْنَ﴾ تحقير للكفار، وفي ضمنه ضرب من التوعد. والمعنى: إنكم لستم بحجة، فسواء علينا أمنت أم كفرتم، وإنما ضرر ذلك على أنفسكم، وإنما الحجة أهل العلم من قبله، وهم بالصفة المذكورة. ثم قال سبحانه: ﴿إِنِّي إِلَٰهِي أُوتُوا الْعِلْمَ مِنِّي قَبْلِهِ﴾ إذا ابتلي عليهم يخشون للإله قارب جداً. ﴿إِلَٰهِي أُوتُوا الْعِلْمَ مِنِّي قَبْلِهِ﴾ فقالت فرقة: هم مؤمنو أهل الكتاب. وقالت فرقة: هم ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل ومن جرى مجراهما. وقيل: إن جماعة من أهل الكتاب جلسوا وهم على دينهم فتذكروا أمر النبي ﷺ وما أنزل عليه وقرئ عليهم منه شيء فخشعوا وسبحوا لله وقالوا: هذا وقت نبوة المذكور في التوراة وهذه صفته ووعد الله به واقع لا محالة، وجنحوا إلى الإسلام هذا الجنوح، فنزلت الآية فيهم.

وقالت فرقة: المراد بـ ﴿إِلَٰهِي أُوتُوا الْعِلْمَ مِنِّي قَبْلِهِ﴾ محمد ﷺ. والضمير في ﴿قَبْلِهِ﴾ عائد على القرآن حسب الضمير في ﴿بِهِ﴾، ويبين ذلك قوله: ﴿إِنِّي أُتِلِّي﴾. وقيل: الضميران لمحمد ﷺ، واستأنف ذكر القرآن في قوله: ﴿إِنِّي أُتِلِّي﴾. وقوله: ﴿لِلَّهِ قَارِ﴾ أي: لناحيتهما، وهذا كما تقول: تساقط لليد والفم، أي: لناحيتهما. وعليهما قال ابن عباس: المعنى للوجوه. وقال الحسن: المعنى للحي. و"الأذقان": أسافل الوجوه حيث يجتمع اللحيان، وهي أقرب ما في رأس الإنسان إلى الأرض، لا سيما عند سجوده.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ و﴿إِنْ﴾ في قوله: ﴿إِنْ كَانَ﴾ هي عند سيبويه المخففة من الثقيلة، واللام بعدها لام التوكيد. وهي عند الفراء النافية، واللام بمعنى "إلا". ويتوجه في هذه الآية معنى آخر وهو أن يكون قوله: ﴿إِمْنُؤَايِهِ أَأُولَٰئِكَ تُوْمِنُوْنَ﴾ مخلصاً للوعيد دون التحقير، والمعنى فسترون ما تجازون به، ثم ضرب لهم المثل على جهة التقرير بمن تقدم من أهل الكتاب. أي: إن الناس لم يكونوا كما أنتم في الكفر، بل الذين أوتوا التوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزلة في الجملة إذا يتلى عليهم ما نزل عليهم خشعوا وآمنوا.

وقوله عز وجل: ﴿وَيَخْشَوْنَ لِلَّهِ قَارِ يَتَّبِعُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ هذه مبالغة في صفتهم

ومدح لهم وحض لكل من ترسم بالعلم وحصل منه شيئاً أن يجري إلى هذه الرتبة. وحكى الطبري عن التميمي أنه قال: إن من أوتي من العلم ما لم يبيكه لخليق أن لا يكون أوتي علماً ينفعه؛ لأن الله تعالى نعت العلماء، ثم تلا هذه الآية كلها.

ثالثاً: مقاصد الآيات:

تهدف هذه الآيات إلى تحقيق مقاصد تربوية كثيرة، منها:

- تأكيد الله سبحانه على صدق القرآن الكريم وأنه الحق من عنده سبحانه في أخباره وأحكامه وشرائعه، ومصدق للرسول ﷺ في كل ما أتى به من عنده عز وجل.
- التنويه بأهمية القرآن الكريم وقيمته.
- بيان مهمة النبي ﷺ التي تنحصر في تبليغ رسالة ربه دون إلزام ولا إكراه.
- تقرير عدم حجية ما عليه المشركون من التردد في شأن القرآن الكريم في صدقه، ما دام الصالحون من أهل الكتاب وهم خير منهم وأعلم آمنوا به وصدقوه، وتأثروا به وخشعوا عند سماعه.
- إكرام الله تعالى وإنعامه على رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم، حيث أنزله عليه منجماً ومفرقاً حسب الوقائع والأحداث؛ لتكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس المؤمنين.

التقويم

- 1 - ما المقصد من إيراد الله تعالى تنويهه بالقرآن الكريم في هذه الآيات؟
- 2 - ما الحكمة من إنزال الله سبحانه القرآن منجماً ومفرقاً؟
- 3 - ما الغاية من استشهاد الآيات بتصديق الصالحين من أهل الكتاب بالقرآن الكريم في معرض الرد على المشركين الذين كذبوا بآياته؟
- 4 - أبين الأسلوب البلاغي في قوله سبحانه: ﴿لَا تَقَالِ﴾ وأثره في معنى الآية.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذِ اتَّخَذُوا عَلَيْهِمْ ذُرِّيَّتَ الرَّحْمَٰنِ خِشْيَا وَبُكْيَا ۝﴾ [مريم: 58]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيهِمْ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ ۚ إِلَٰهِي كَرِّمِ اللَّهُمَّ إِلَاكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۚ مَرْثِيَاءُ ۚ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝﴾ [الزمر: 22]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: " اقْرَأْ عَلَيَّ ". قُلْتُ: اقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: " فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي ". فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النَّسَاءِ، حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى الْعَوَّلَاءِ شَهِيدًا ۝﴾ [النساء: 41] قَالَ: " أَمْسِكْ "، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ "

[صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾].

أتأمل النص وأجيب عن الآتي:

- 1 - أستنتج المضمون المشترك بين النصوص.
- 2 - ما هو أثر القرآن الكريم في نفوس الخاشعين؟ وما دوره في تركية النفوس وتهذيبها؟

أتأمل الآيتين: 109 - 110 من سورة الإسراء وأجيب عن الآتي:

1 - أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: الْحُسْنَى - وَلَا تُخَافُوا بَعَا - وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ - وَكَبِيرًا.

2 - كيف أستدل على توحيد الله تعالى من خلال تعدد أسمائه الحسنی؟

3 - أستخرج ما في ﴿أَيَّامًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا تَدْعُوا قَلِيلًا سَمَاءَ الْحُسْنَى﴾ من قواعد وتقديرات نحوية.